

تأزم الهوية في رواية ليل علي بابا الحزين للروائي عبد الخالق الركابي

أ.م.د. رحيم عبد علي

ملخص :

السرد الروائي يمثل موقفاً عاكساً للواقع وقراءة لأحداثه من وجهة نظر الراوي خلال تطلعه وإمامه بما يدور في ذلك الواقع من أحداث ، وقد لعب مخياله السردي الذي منحه الخلق وتصوير الرؤى وهي تلوح في آفاق النص الواسعة وانفتاحها ؛ لتوظيفه تلك الأحداث ؛ وما لها من معطيات سلباً أو إيجاباً على الحياة العامة ، ولعل موضوع الهوية اليوم هو من أبرز انعطافات ذلك الواقع ؛ لما يطغى علي الفرد من ضغوطات سياسية ودينية واجتماعية ، والذي شكلت دراستنا لرواية ليل علي بابا الحزين تخلخل الهوية لدى شخصياتها ؛ لما للظروف التي حكاها الراوي في ظل غياب القانون ، وممارسات العنف واستيراد الأفكار الغربية ولما للازدواجية التي مكثت في لاوعي إنساننا ، إذ امتزجت لدية صفات البداوة والمدنية جعل من تلك الشخصيات تتعامل على وفق ردود أفعالها تجاه ماكان يتحكم بمصائرهما ، ومازال من عنت وكبت للحريات بسبب التسلط والحرمان ، إذ رصدت الرواية أحداثاً مرّت بالواقع العراقي وأطاحت بثباته النسبي في وحدة الهوية، وتمزقها ، وشتات معالمها. ولقراءتنا خير معين لرصد الأنساق الخفية للأسباب والنتائج التي آلت إليها الرواية، ولعل من الجور حصر المعنى داخل أفق محدد، بوصفه ينتمي إلى سياقات ثقافية ، منها سياسية ، واجتماعية، وعقدية ، وفكرية ، فتتويع المنطلقات ، واختلاف الأساليب ، وتعدد المستويات في عملية القراءة لا تسمح بأحادية المعنى، وإنما تسمح بتنوع المعنى وتعدد.

الكلمات المفتاحية : الهوية، التأزم، الانسلاخ

Crunch Identity in the novel by Lail Ali Baba Al-Hazen by novelist Abdul Khaleq Al-Rikabi

Identity, Crunch, Flaying.

key words :

ABSTRACT

The narration represents a position from the point of view from the point of view of the narrator when he looks forward to the events in that reality, He played his narrative imagination, which gave him the creation and the depiction of visions as they waved the broad horizons of the text and its openness in employing these events, because of its negative or positive facts on public life. Perhaps the issue of identity

today is one of the most prominent turns in reality. It dominates the individual due to political, religious and social pressures. Therefore, our study of the novel, Lail Ali Baba Al-Hazen, constituted an aggravation of the identity of its personalities, due to the circumstances narrated by the narrator in the absence of law, violent practices, the import of Western ideas, and the duality that remained in the human subconscious. As he mixed the characteristics of Bedouin and Medina, which made the characters deal according to their reactions towards controlling their destinies, while the repression of freedoms remained due to authoritarianism and deprivation. The novel captured events that passed through the Iraqi reality and toppled its relative stability in the unity of identity, its disruption and its dispersal. Our critical reading of the novel greatly influenced the observation of the hidden formats of the causes and results of the novel, Perhaps it is unfair to limit the meaning within a specific horizon, as it belongs to cultural contexts, And political, social, religious and intellectual, The diversity of the concepts, the difference in methods and the multiplicity of levels in the reading process do not allow mono-meaning, but rather the diversity of meaning .and its multiplicity

المقدمة :

الرواية هي واحدة من الأجناس الأدبية التي لم تتبثق من فراغ ؛ بوصفها تمثل قراءة الراوي لواقع يترجمه سرد يلامس فيه شعور الآخرين خلال أنساق مستبطنة تمثل التعبير والإفصاح لداخل النفس البشرية ونظرتة للأحداث وما تؤول إليه من معانٍ ماكنة يمكن للقراءة المتأنية اكتشاف ما تغلغل فيها من معانٍ وأسباب ونتائج لقضايا مجتمعية في عالم تمنهجه قدرات الكاتب للوصول إلى غايته التي كتبت الرواية من أجل ترجمته .

ورواية (ليل علي بابا الحزين) للروائي العراقي عبد الخالق الركابي هي واحدة من الروايات التي أرخت زاوية لواقع من الحياة العراقية إبّان دخول الأمريكان غزاةً للبلاد ، محاولاً أرخنة الواقع قبل الغزو وبعده وهو يقف على ثيمات تاريخية من عمر العراق الحديث والمعاصر ، إلا أنه أكد على ظاهرة النهب والسلب التي عمّت البلاد ولاسيما المدن التي قطنها ومنها مدينة بكرة في واسط والعاصمة بغداد معمماً ذلك على المحافظات الأخرى وما تلا ذلك من أحداث منها ردود الأفعال الانتقامية ضد رجال النظام السابق ، ومن ثم الفتنة الطائفية التي اشتعلت في البلاد .

وكان من أسباب اختيار الدراسة ، هو قراءة الواقع العراقي من طريق رؤية الراوي وربطه لماضي عاشه العراق في القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين وما أفرزته الحياة السياسية والاجتماعية على المجتمع ، ومنظور المثقف ورؤيته لهذا الواقع الذي سبب للكثير من أبناء الشعب الشعور بتأزم الهوية الوطنية، ولتشخيص الأسباب التي أدت إلى ردة الفعل التي عمّت الناس ؛ لما آلت به الأمور من فقدان السيطرة على الأمن وانهيار منظومة الأخلاق لدى البعض ولظاهرة النهب والسلب التي عجت بها البلاد مما جعلها تطغى على المشهد العراقي إعلامياً وأديباً ، وقد مثلت رواية (ليل علي بابا الحزين) جزءاً من ذلك ؛ مما جعل الدراسة

تعول على قراءة الأنساق الثقافية التي كوّنت مضمرات الرواية ، وهي تستبطن الدواعي والأسباب والمخلفات التي تضمنتها .

و خلال ما أضمرته الرواية من أنساق استطاعت الدراسة الوقوف على أربعة أنساق : الأول : نسق الطائفية ، والثاني : نسق التسلط والعنف ، والثالث : نسق العولمة ، والرابع : نسق اللاشعور الفردي والجمعي . وقد حققت الدراسة غايتها ، فاستطاعت أن ترصد بنية الفرد العراقي بعد تقصي شخصيته من طريق الطروحات الاجتماعية وتعالقها في أحداث الرواية ، وما يستبطنه أدب السرد ، وهو يواكب حياة المجتمع ، كما رصدت الدراسة الدواعي والأسباب في عمل الروائي ، وهو يبيث أفكاره ورؤاه عبر أنساق تبحر داخل النصوص ؛ لتعبر عما يبغيه صاحبه ، بوصفها رسالة أدبية جمالية للمتلقي ، فضلاً عن كونها وثيقة تاريخية تسجل أحداث أعقبت مرحلة خطيرة من تاريخ العراق . وقد اعتمدت الدراسة على مراجع تاريخية ونقدية واجتماعية، أفادت الإحاطة بما خلدته الرواية عبر مشاهدات الروائي العيانية .

تمهيد

تبنى الأوطان بانتماء أبنائها إليها ، فتجمعهم هوية المواطنة ؛ لتأسيس بنى عميقة تواكب روح الحضارة وتتسكب بها ، ولعل التمسك بالوطن هو خير شفيح ؛ لأن تزدان البلدان عمقاً وتطوراً ؛ فيسعد بنوه ، وهم يعيشون في كنفه آمنين مطمئنين ، والفيلسوف كانط يعطي " أهمية للإنسان ، ويجعله واعياً باختيار هويته ؛ بوصفه كائناً حرّاً يتواصل مع الآخرين دون وصاية أو قسر ، وهو مع ذلك يختار وفق إرادته شروط التواصل المنبثقة مع العقل " (١)، ولعل أهم ما يغذي الهوية هو حب الانتماء للأرض و مايعتقده ، ومنح الآخر حريته التي ينبغي أن يعيش هو الآخر بطمأنينة وأمان ، ولايعكس هذا الأمر الذات ، إنما تربية المؤسسة الحكومية حين تكون منصفة بتحقيقها العدالة بين مواطنيها إن كانوا ينتمون إلى قوميات ومذاهب كما هو النسيج العراقي ؛ كي يشعر المواطن بالانتماء لوطنه ، فتؤمّن له كل عناصر النظام الاجتماعي ، والاقتصادي ، والسياسي ، ولاسيما حرية الرأي، كما تؤمّن له الحقوق التعليمية والصحية والخدمية والسكن وكل ما يمت بإنسانيته من طريق تحقيق الرعاية اللازمة لجميع أبنائها بعيداً عن التفرقة المذهبية أو العرقية أو الأثنية أو الطبقية .

فالأمم المتقدمة تسعى ؛ لتباري الأمم الأخرى من أجل توطيد هوية مواطنيها خلال منحهم حقوقهم من دون استلاب ، أو تقويض ؛ لما يحلم به الفرد ويطمح إليه ، ومنحه الأمل الشعوري واللاشعوري ؛ ليحصل على مباركة الضمير الإنساني لدوره أمام نفسه والآخرين، وتشجيع ونقل هذا الرأي من عزلته ومحاورته والأخذ بأرائه ومقترحاته ، وتشجيع مبادراته الهادفة الى تطوير العمل ، كما أنه من الضروري تعويد الأفراد على التضحية في كل جوانب الحياة بدءاً من المدرسة حتى التضحية في المال والدم في سبيل الوطن (٢) .

وأكد الكثير من الفلاسفة والمفكرين على الهوية بعدها إحدى مقومات البناء الذاتي للفرد وشعوره بالانتماء إلى الجماعة ، وهي تعيش عاداتها وتقاليدها وحتى أخلاقها ومثلها .

ولعل الدراسة بنيت على انسلاخ المواطن العراقي من الهوية الوطنية إبّان الاحتلال الأمريكي وسقوط النظام السابق ، وقد اعتمدت " على بناء سياسي يدعى الدولة ، حين يفرض على مواطني تلك الدولة حمل هوياتهم

الوطنية التي تعد إعادة تفسير دائم للرموز والقيم والذكريات والأساطير والتراث الذي يميز به الأمم ويُعرف به الأفراد ... تتسجم مع تطلعات النظام السياسي الذي يحتويها^(٣) ، فالهوية القبلية أو المحلية كالتائفية والعرقية أو الدينية ، هي ما تمثل هوية فرعية ، لكن الهوية حين تخرج من إطارها الضيق تكون هوية وطنية يتوحد فيها الانتماء في جغرافية وتاريخ ومصالح مشتركة .

ورواية ليل علي بابا الحزين للروائي عبد الخالق الركابي الذي طرح فيها جملة من الرؤى والمواقف التي أفاضت بما حلّ بالوطن العراق إبان الغزو الأمريكي ، وقد طغت فيها مأساة تأزم الهوية لدى كثير من الناس ، فكان الشعور العام ينذر بمأساة كبرى حلت على الواقع العراقي ، وما جرى من نهب وسلب أدى إلى ظاهرة تأزم الهوية لدى المواطنين ، بينما تداعيات القتل دفعت للعودة إلى الجذر الماكن في النفس العراقية من أجل الحفاظ على هويتها المتجذرة في موروثها ، كما أنّ الرواية تناولت سلسلة تاريخية عاشها السارد وما عاناه المواطن ؛ مما أدت إلى فرز ظواهر كثيرة قوّطت الهوية واهتزازها لدى الكثير من الناس.

و لايمكن لأي إنسان أن يتنازل عن هويته التي تمثل نزعتة الأنوية وشعوره الوجودي مالم تكن هناك دواعٍ تتطلب منه الفقد لها ، وقد طغت تلك الظاهرة في العراق لكثير من مواطنيه وفي أغلب نواحي الحياة وأنظمتها ؛ مما حدا بالروائي العراقي الركابي أن يسرد روايته ليل علي بابا الحزين مدوّناً فيها مشاهداته ، إذ استمد عنوانها من قصة علي بابا الذي تناولته قصص ألف ليلة وليلة في العصر العباسي ؛ ليرمز بها للأحداث التي مرّت على واقع العراق إبان الاحتلال المتعاقبة ولاسيما الاحتلال الأمريكي الذي بنيت الرواية في أغلب أحداثها على عصرنا بعد الاحتلال ، وقد كان الكاتب هو ذلك الراوي والشخصية البطلية في الوقت نفسه ؛ ليبوح بمشاهداته للأحداث التي جرت في العراق بما عرف بظاهرة النهب والسلب المشاعة ، وهو بيتدئ أول سطورها بقوله " يوم عدت بإسرتي إلى بغداد - عقب رحلة كابوسية إلى مدينة الأسلاف انتهت باعتقالي ، فوجئت بالجيران يرددون كلاماً غريباً غير قابل للتصديق مفاده أنّ (كهرومانه) في نصبها القائم في منطقة (الكرادة) توقفت يوم التاسع من نيسان عن سكب الزيت في جرابها حيث شوهد أربعون لصاً يثبون تباعاً مغادرين تلك الجرار ؛ ليتوزعوا تحت جناح الليل في شتى أحياء العاصمة " (٤)؛ وهذا ما يحيلنا إلى انهيار القانون منذ لحظة دخول الأمريكان بغداد ، ولعله وظف ذاته فيها من أنّه الروائي الذي يبغى كتابة روايته ، فصور اعتقاله قبل الغزو بأيام في مدينة الأسلاف جعلته ينطلق من خلال مشاهداته للأحداث التي جرت ، و ما رآه ، وما استذكره لشخصيات عبر تاريخها الطويل(٥) ، و قد سرد أحداث بتقنية المراوغة عبر مفارقاته في القصص مما ترك أسباباً لتأزم الهوية الوطنية لدى الكثير من المواطنين ممن وسّمهم بالناهبين ؛ لذا يمكننا قراءتها من خلال ما بثّه في روايته من أحداث مثّلت انسلاخ مرتكبيها عن تلك الهوية الوطنية ، وتراجع ثقّتهم بطرق الحياة والتفكير التقليدية ، ولعله يلمح بغياب الهوية في تصرفات أحد شخصياته ، " والمسكين موسى الحداد الحريص على إبراز هويته لكل وافد جديد للتأكد من حقيقة اسمه " (٦) في إشارة إلى تأزم الهوية في تلك الحقبة ، وأنّ أبرز أنساق الانسلاخ عولجت بمباحث درسنا على وفق المنهج الثقافي الذي اقترحه فنسنت ليتش بأنّه " دينامية (نشطة وحيّة) ومتعددة الأوجه، يدخل فيها الاقتصاد والتنظيم الاجتماعي والقيم الأخلاقية والمعنوية والمعتقدات الدينية

والممارسات النقدية والأبنية السياسية وأنظمة التقييم والاهتمامات الفكرية والتقاليد الفنية" (٧) لتكون قد استطعنا الغور فيما تضره الرواية من أنساق .

المبحث الأول

نسق الطائفية

لعلّ الوازع المذهبي والطائفي كان عقدة من عقد المجتمع العراقي المضر الذي أفرط في تعقيده سياسة الحاكمين ، إذ أعاد المستعمرون بناءه برويبتهم القصدية منذ تأسيس الدولة العراقية الحديثة وذلك بتسليط مذهب على مذهب دون منح الثقة للأخير ، مما مثل في ذلك غياب للعدالة ؛ مولدًا حساسية مقبلة على مدى سني تعاقب الحكومات التي آلت إلى أزمة مستعصية في البلاد ، وما كانت تورده المس بيل عن لسان عبد الرحمن النقيب قوله : " لكنني أقول لك أن تكوني حذرة من الشيعة ، وأنتي لست لي خصومة مع الطائفة الشيعية " (٨) ، ولما كان العدل هو أساس الحياة ، فهو ما يمثل ركناً أساسياً لجميع أحوال الإنسان بوصفه القوة " التي تجعل الموضوعات معروفة وبقينية وجوهريّة ، التي تهب لعارها القدرة على الإدراك وهو أصل العلم والحقيقة والمصدر لكل الخير الموجود في هذا العالم ، إنّه مثال المثل الذي يكون كالشمس التي تهب للمريئات حيوبتها ونماءها وغذاءها " (٩) ، فالعدل هو خير ما ينوء بمبادئ حرية الفرد والجماعة للتعبير عن تطلعاتهم وغاياتهم وتبادل ثقافتهم مع الآخر ، و قد دعت الشرائع السماوية ودعاة الحق لحرية الحوار ، كذلك الفلاسفة منذ فجر التاريخ حتى عصرنا الحديث ، فالفيلسوف الألماني هابزماز يدعو لاختيار الهوية التداولية كاستراتيجية جديدة للحوار والمكاسب المستحصلة من وراء ذلك ، مؤكداً على أخلاقيات الحوار الذي يسمح " بإنجاز قاعدة للتفاهم انطلاقاً من كل المصالح المشتركة التي توجه بنجاح نقد الآراء" (١٠) ، والأفكار التي يطرحها الجمهور مهما كان مذهبه أو مشربه في الوطن الواحد ؛ وذلك يتأتى من طريق العدالة التي يبثها الحاكمون حتى في مقاليد الحكم ؛ ليشعر الجميع أنّهم أبناء وطن يعيشون تحت نراه، ويخدم بعضهم بعضاً ، وما خلق هذا التأزم الطائفي من عدم التكافؤ بين الأطراف صار يشعروهم بضياع حقوقهم وفقدان العدالة بينهم حتى في ممارسة بعض الشعائر ، فكان التضييق عليها من قبل الحاكمين قد مثل في نظرهم تسلطاً طائفيّاً على رقاب الطائفة الأخرى ؛ لاسيما الممارسات القمعية التي حدثت في أعقاب الحرب العراقية الإيرانية التي نظر إليها أبناء كلا الطائفتين واستقر في أذهانهم أنّها حرب قامت على أساس طائفي.

ولغياب الحوار الذي يمثل ركناً من أركان العدل والمساواة ، وهو قيمة من قيم الديمقراطية التي تبنى على وفقها الأوطان ، إذ تجعل من الذات محبةً للمكان الذي تعيش فيه وتتعايش معه ، و الرواية وقفت عند أحداث تزخر بغياب الحوار الإيجابي ، ولعلّ الشعور بالظلم ذلك الشعور الرائج للمساسس بالطرف المُقاد، فمن " حيث السلطة والتسلط التي عدّها ماكس فيبير (فعل عنف يهدف إلى إجبار الخصم على فعل ما أريد) " (١١) هو ما لمسّه السواد الأعظم من الرعية إبان النظام السابق ليس ضد الأحزاب المناوئة من الطائفة الأخرى فحسب ، إنما

حتى التضييق على الشعائر المذهبية ، وهو أيسر لها من إشعارهم بالحرية في ممارسة تلك الشعائر، فحين تلاشى وجه النظام ، كانت النقلة التي أدت إلى ما شاع به الشارع العراقي - وهذا ما أراد أن ينقلنا له الروائي - الذي ازدحمت به أحداث مريبة من تفجيرات ومذابح وقتل على الهوية وظهور عصابات كان أثره الفراغ الأمني ؛ مما سمح للزعة الطائفية تسود ؛ فأغرقت البلاد بالدماء ، وقد عدَّ الفلاسفة والمفكرون الاجتماعيون " العنف آلية من آليات الدفاع عن الذات ضد المخاطر التي تجابهها ... ومنهم من ردَّ العنف كما عند هوبز - Hobbes إلى الخوف الدائم والإحساس الدائم بالخطر والريبة والشك " (١٢) من الآخر ، فأصبح الشارع يتفجر دموية ؛ ليتسع العنف ، ولاسيما في بغداد بوصفها العاصمة التي ضمت الخليج الأكبر لمعتقي المذهبيين ، فتجبرَّ الوضع بعد سقوط الحكم ، كما شجعت على ذلك قوى خارجية لكلا المذهبيين التي سبقت ذلك ثقافة النهب والسلب لعدم الحرص على البلد وممتلكاته ، وما أورده لنا الراوي من اغتيال " رب أسرة يقع بيته على بعد بضعة بيوت من بيتي كان قد ألف الذهاب إلى الجامع القريب فجرَّ كلَّ يوم ؛ لأداء صلاته ، قُتل أمام بيته ، فبقي دمه المسفوح على شكل بقعة كبيرة لطَّخت إسفلت الشارع أسابيع " (١٣) ولعل مثل هكذا أفعال جعلت الناس تفقد الأمان ؛ لأنَّها لا تجد مسوغاً لقتل الناس دون أن تقام محاكم لمن جرَّم من دون شاهد إجرامه أو حوكم في الشارع بالإعدام دون أن يُعرف السبب لربما لكلمة قالها لايجد إلا قتلته في الشارع ، ولعل ما حدث لأبي منير صاحب الدكان في محلة الراوي " لقد اغتالوا (أبو منير) اقتحموا عليه حانوته منذ أكثر من ساعتين ؛ ليصلوه بعشرات الطلقات قبل أن ينسحبوا بطرفة عين " (١٤) ، بينما يصفه الراوي أنه كان رجلاً وديعاً ، لكن يبدو على كلمات كان يسخر بها هو ومن معه من الاصدقاء حين يلتقون عنده " في تبادل تعليقات فكهة حول مبلغ ثورية تلك المليشيا الأصولية التي وجدت في عورة الماعز أمراً بالغ الخطورة لا ينبغي غض الطرف عنه في تغطية أذائها بينما أفواه ابناؤها تبحث عنها من خلف ستارات أمر أصحاب تلك الماشية أن تُغطَّى " (١٥) ، وهذا مثال لتعدد المليشيات الطائفية في البلاد .

ولعل العوامل التي مرَّض بها البلد في الحقب الماضية وتجذر لدى البعض هو ضياع الانتماء؛ فكان الاهتمام بالمكان والانزياح أو ما سمي بـ "الانخلاع" سمة مشتركة لتمظهرات أزمة الهوية في آداب مابعد الكولونيالية، ذلك أن تخلع الذات والمكان الذي نجم عن الاستعمار قد أنتج اغتراباً وتخلخلاً في صورة الذات وهويتها (١٦)؛ مما شكل ذلك ضياع الإرادة ، فراحت تلعب به طائفيته المقيتة التي زرعتها عيون الشر الطائفي ، التي باتت تنهش المغفلين من كل الأطراف ، فعن لسان الراوي حين خاطبته (مي) بقولها : " ستبقى كما عهدتك موزع الإرادة بين المستر جيكل والمستر هايد لاتستطيع الحسم في أخص شؤونك " (١٧) ، وهذا مثال نظرحه لما في الرواية من أحداث توعد إلى عدم الخلاص من ركب التبعية التي تدهم الكثير من الناس، وهي تستفز بهم روح التبعية من دون الاحتكام للعقل ، والاعتماد على الإرادة الذاتية في الاختيار؛ مما أسس لدى الكثير أن ينتهجوا عاطفتهم أو مصالحهم في أمور تحافظ على ذواتهم .

ومن المشادة التي حدثت في معتقل الفرقة الحزبية بين يحيى ونجيب ؛ لتعرية كل منهما الآخر حين ذكَّره " بسنوات الأسر في إيران وتجنيد في صفوف التوابين ، بيد أنَّ نجيب لم ينهزم هذه المرة ، إنَّما جابه خصمه بإحدى قهقهاته المججلة التي شفعتها بتأسفه ؛ لأنه لم يعد في وسع يحيى استثمار هذه التهمة برفع تقرير)

محترم) ضده إلى الجهات المعنية ؛ وذلك لأنّ تلك الجهات المعنية المكلفة بتلقي هذا الهراء قد ولّت مهزومة ... معترفاً بأنّ ما كان يشغله آنذاك ، هو الإفلات من تلك العقوبات التي كانت تفرض على الأسرى بأيّ عذر من الأعدار، فقد كان المشرفون على تلك المعسكرات يناصرونهم العداء عادين إياهم دون استثناء من ألام النظام دون أن يخطر لهم قط أنّهم اقتيدوا من بيوتهم مرغمين ؛ ليلقوا بهم في وجه الإيرانيين ... " (١٨) ، يشير ذلك إلى الولاء الطائفي دون الوطني ، والعمل لطائفته وإن كان ذلك العمل لدولة أخرى من الطائفة نفسها.

ومن الأسباب التي سهّلت الاحتدام الطائفي هو غياب الأمن و فقدان القانون ، ما ينقله لنا الراوي من أحداث كان لها أثرها في عدم التشبث بالهوية الوطنية أو الإنسانية فمن غياب القانون " كان أفراد الشرطة أول من اختفى من الشوارع المحيطة بحيّنا ، لينسل في أعقابهم رجال الحرس الوطني ، تاركين مواضعهم المحصّنة بعوارض إسمنتية عملاقة لسطوة رجال (مليشيات) بلحي مسترسة وملابس سود ... كان القلق قد خيم على الجميع ؛ فخلا الحي من ساكنيه بالتدريج " (١٩) ؛ خوفاً من القتل المباح .

ولعل الأحداث المريبة وعمليات التهديد التي باتت تطال العوائل برمي مظروف لها يحتوي على رصاصة واحدة كإنداز بالإخلاء ومن ذلك الحوار الذي دار بين شخصية الراوي وزوجته حين طلبت منه أن يغير مكان السكن : " لاجابة إلى استتجار بيت في منطقة أخرى، بل الأفضل الهجرة إلى سوريا ... التي هاجر إليها أغلب الجيران حتى باتت تعج بحشود العراقيين " (٢٠) كل هذا جعل الانتماء للوطن غير مبرّر طالما كان النزاع طائفيّاً دون أن يقوى أحد على الحديث بالمواطنة التي ترعزت في النفوس دون أن تستشعرها سوى الخلاص من هذا الواقع المرير .

كما أنّ الطائفية لم تكن بين خصمين متصارعين منذ فجر الإسلام ، بل شملت حتى الطوائف الصغيرة حين يتولد الفراغ الأمني وينفرط السلاح بيد قوى سياسية عابثة ومنتقمة من الآخر بدعوى التعصب الديني أو الطائفي ، فدنيا المسيحية تتألم لما أطال طائفتها من عنف ، وهي تذكر بروز تنظيمات أصولية متطرفة على الساحة " هذه التنظيمات التي ناصبت الأقلية المسيحية العداء " (٢١) ، كما أنها حتى الآن تستذكر تاريخ العنف تجاه طائفتها وتهجيرهم في الأسلاف ، إذ تقول : " بعدما تركها آخر رجل دين مسيحي اضطر إلى الهجرة عقب تلقيه سلسلة تهديدات كانت تخيره بين إشهار إسلامه أو دفع الجزية " (٢٢) .

ولغياب حرية الآخر نرى دنيا تستنكر ما يفرض عليهم خوفاً من الزجر والاستهجان ، وهي تواصل كلامها : " والحجاب ؟ هل سمعت من قبل الآن بمسيحية تعمد إلى الاقتداء بالمسلمات في ارتداء الحجاب " (٢٣) .

ومن أسباب الفجوة التي جعلت من التفرقة وإضعاف الهوية الوطنية هو الإعلام الذي رافق العملية السياسية بعد عام ٢٠٠٣ م ، إذ " عملت وسائل الإعلام سواء بقصد أو بدون قصد على إنكفاء سياسات الفتن والمحاور عبر توصيفات إعلامية سياسية وطائفية بين وسط توصفه بالسني وجنوب توصفه بالشيعي وشمال توصفه بالعراقي ؛ مما أفرز الكثير من مظاهر الكراهية للأخر ترجمت بسلوكيات عنيفة دموية " (٢٤) .

وكان المحفز الرئيسي هو تفجير قبة الإمامين العسكريين " ما يجري في طول البلاد وعرضها وفي بغداد على وجه التحديد من مجازر مروّعة تمثلت بمهاجمة الطوائف المتناحرة إحداهما الأخرى عامدة إلى إحراق بيوت

الله وذبح أئمة المساجد ، وسمعنا مذهبولين بمجالس فاتحة تقام على أرواح المغدورين ، ينحر فيها أفراد من الطائفة المناوئة عوضاً عن الأضاحي " (٢٥) ؛ مما ولد ضياعاً للانتماء الوطني وخلق هوية طائفية لدى الكثير ممن جهلوا حقيقة الإنسانية تعتملهم رغبة الانتقام من الآخر بدموية مفرطة، وهذا ما يعزز الرأي أنّ من أسباب تأزم الهوية الوطنية هذه الروح التي استنفحت في البلاد ، وظلت انعكاساتها لدى الكثير من الناس حتى غدت السياسة على أساس المحاصصة الطائفية التي جعلت من الهوية الوطنية لعقاً على الألسن دون الاهتمام بجديتها .

المبحث الثاني

نسق التسلط والعنف

لعل التسلط والعنف واحد من اشتغالات فقدان الهوية وصدق الانتماء ، إذ أدى ذلك العنف إلى ردود فعل نفسية تجعل من الفرد ، بل الجماعات لا ترقى في انتماءاتها إلى لوطن ؛ لأنّ سدنة الحكم هم من منتهكي الحقوق ، فضلاً عن شعورهم بامتلاك الوطن دون غيرهم ، كونهم غير حريصين على تحقيق العدالة ؛ مما يجعل أبناء البلاد الأصليين يغادرون وطنهم وينسلخون عن هويته ، ومما ورد في الرواية ما يردده بدر - أحد شخصياتها - كلما بدأ بحديث لا يكل من ذكره فبين الفينة والأخرى يقول : " ثق يا صديقي بأني خير شاهد على أحداث جسام تتابعت على عقود من الزمن ؛ لتنتهي بما نحن عليه الآن من مهانة ، وقد بلغنا (خراء) الختام " (٢٦) . أما ما بعد التغيير ، فالعنف بلغ أشده بسبب تعقد المشهد السياسي ، وتعدد القوى، ومصادر اتخاذ القرار ، وضعف مهنية مؤسسات الضبط الرسمي بأنواعها و لاسيما بعد حل الجيش والمؤسسات الأمنية الأخرى ، والتدخل الخارجي ، ونظرة بعض فرقاء العملية السياسية بدواعي المظلومية والاضطهاد ، فضلاً عن أسباب اجتماعية وسياسية ودينية واقتصادية وتربوية وجميعها ولدت ظواهر اجتماعية سلبية ومنها العنف (٢٧) .

إنّ الذات " المضطّهدة غير قادرة على تحمل القمع الموجّه إليها ، فما إنّ تسنح لها الفرصة حتى تنهض متمردة على الواقع المضني ، ومدمرة لكل ما كان يخنقها ويقيدها وحركتها " ؛ لذلك رأينا اشتداد العنف والنقتيل ضد الأجهزة الأمنية " وأخذت بوادر الخطر القادم تظهر تباعاً : فذات يوم انتشر خبر تعرّض عسكري سابق ، كان في طريقه إلى بيته لإطلاق نار نجا منه بإعجوبة ، فعمد فجر اليوم التالي إلى الفرار بإسْرته " (٢٩) . ولعل ظاهرة العنف تمثل إبطاء المواطن حين يجد الخطر يدهمه في موطنه ؛ مما يجعله ينزع إلى عدم التفاني والإخلاص لمن يحكمه مستشعراً العبودية التي تطاله ؛ مما يسبب له اغتراباً نفسياً ومكانياً ، ومن ذلك اعتقال الراوي وصديقيه يحيى ونجيب وبعض الأشخاص إشارة إلى التسلط والاعتقال ؛ لأبسط الأسباب بقول الشخصية الراوي مخاطباً الرفيق حمزة : " وهل تصدق يا حمزة إنّي تجاوزت القانون بالطريقة التي أوحى بها أستاذك ؟ أجنبي لاهتاً : أخشى أن يكون ما يحصل لك وقبلك لصاحبك يحيى قد جاء بوشاية من أحد أعدائك " (٣٠) ، فما زاد الحق والحقد لدى من هو بات تتناوشه المخاوف حتى من الآخرين خارج السلطة والتي هي من تمنحهم فرصة الكيد والانتقام ، وبما أنّ الشخصية العراقية تلجأ إلى نزعة التغالب بوصفها ممزوجة بالبدواة " فالبدوي يحب من صميم قلبه ... أن يكون غالباً لا مغلوباً في كل شأن من شؤون حياته " (٣١) ؛ مما حدا بمن

ظلمهم أو حتى من أسرى فيهم القانون ليس إلا عدواً يمكن الإيقاع به في أي حالة من حالات ضعفه والنتكر للهوية طالما من يدعيها ظالمه كما يعتقد .

ولعل الجهات الأمنية كانت جميعها تلقي القبض على أدنى الشكوك ، فعلى لسان نجيب بعدما قال الراوي الشخصية لصديقيه وهم في المعتقل : " إن إطلاق سراحنا مرتين بتنظيم كفالة وبصدور أمر من قاضي التحقيق ، فعاد نجيب يقول ضاحكاً ... ما علاقة الجهة التي أُلقت القبض عليك بالكفالات وقضاة التحقيق، وما أشبهه من هراء ؟ في وسعهم إطلاق سراحك متى ما شاءوا دون شك بيد أن في وسعهم إعدامك دون مراجعة أي قاضي تحقيق " (٣٢) .

فكانت الحجج الواهية الملقاة على عاتق أي من المواطنين كفيلاً بأن تحقيق بمن تلقى عليه أوزار التهمة، فحين سأل شخصية الراوي نجيب المتهم بالاتصال بالأمريكان عبر الثريا أجاب " وهو يضحك بمرارة : وهل يخامرك الشك في ذلك يا أستاذ ؟ لقد تحججوا بامتلاكهم ذلك الجهاز ؛ لإلقاء القبض علي ، وذلك هو دأبهم معي : يفتحمون عليّ بيتي بين فترة وأخرى بعذر من الأعذار : تهريب الأفيون ، أو القطع الأثرية ، بل ... التجسس لصالح إيران ، وما يماثل ذلك من أعذار ، في حين أن السبب الحقيقي لكل هذه المطاردة التي لاتعرف التوقف ؛ لكون أحد أقاربي من الدرجة الثالثة أو الرابعة كما يطيب لهم أن يحددوا لصلة القرى من درجات ، تمّ إعدامه منذ أعوام بحجة انتمائه إلى أحد الأحزاب الإسلامية المحظورة " (٣٣) كل ذلك مثل استيلاء الناس وشعورهم بالغبن من الحكومة ، فالإقتصاص من الحكومة السابقة في نظر ممن ارتكبوا القتل والنهب هي تلك الأفعال التي مارسوها والتي لاتمثل سوى الانتقام والتحدي والشعور بالغلبة .

أما سلطة المحتل فمنذ أيامه الأولى وما استعملته إلا للإذلال والخضوع ، ففي بغداد " كانت جنث جنود عراقيين ، وهم بملابسهم العسكرية ، قد تساقطوا بوضعيات مختلفة قرب خط المياه ، حيث الأمواج كانت تغمر بعضهم بين لحظة وأخرى .

- ما الذي منع الأمريكيين من أن يواروا جنث هؤلاء المساكين التراب ، وقد مرّت على احتلالهم بغداد أيام ؟ تساءلت زوجتي ناشجة ، فأجبتها وأنا أطبق قدمي على دواسة الوقود منطلقاً بالسيارة بأقصى سرعتها : لكي ينتزعوا منك ومن آلاف الأسر التي تجتاز هذا الجسر يوماً صرخة التحذير تلك ، ملقّنين بذلك إيانا أول درس في الإذلال والخضوع " (٣٤) .

ولعل التربية السلطوية أفقدت حتى منتسبي الأجهزة الأمنية و الحزبية شعور الانتماء للوطن بدليل لاحساب لسارق أو إصرار على حفظ ممتلكات الدولة بعد سقوط النظام ؛ لذا كان ممن تقنّع بقناع اللص هرع ينهب ويحرق المنشآت الحكومية ومنها الوزارات ولم يتصد لهم أحد من القوات الأمنية ؛ لشعور تلك القوات بالضعف خوفاً من الصدام من عدوة الجماهير الغاضبة، فضلاً عن الشعور باللامبالاة وإلقاء اللوم لمن تسبب بالعنف والاضطهاد لهم باسم الوطنية " وهم يجوبون الشوارع ؛ ليقتمحوا دون تردد الوزارات والدوائر الرسمية ؛ لينهبوا ما يستطيعون نهبه قبل أن يضرمو وراءهم النيران " (٣٥)

وبعض الدراسات أوكلت العنف إلى أسباب منها الضعف الذي "بدأ يدب في أوصال منظومة القيم العراقية منذ أواخر عقد السبعينيات من القرن الماضي ، إذ فقدت الكثير من القيم الإيجابية معانيها وأصبح من السهل

تجاهلها ومن دون خجل ، وازداد هذا الهبوط بعد الاحتلال الأمريكي للعراق في عام ٢٠٠٣ م، وبسقوط الدولة العراقية ... وغياب سلطة القانون وتحت وطأة الاحتلال وتداعياته ووطأة عوامل داخلية مثل الفقر والبطالة والمجاعة ، وعوامل خارجية مصحوبة بأجندات خاصة لدول الجوار ... مما أفقد الأفراد توازنهم النفسي والاجتماعي وقدرتهم على استيعاب الحاضر ... في مثل هذه الأوضاع انطلقت فعلاً كل مظاهر العنف من قتل وخطف وحصول على المال بوسائل غير مشروعة " (٣٦) . ومن مظاهر العنف التي أوردتها الرواية في غضون دخول القوات المحتلة " لوحق سائق سيارة أجرة انحرف بسيارته نحو شارعنا حيث أدركه مطارده عند أول منعطف ، فتناثر مخه على زجاج سيارته المهشم " (٣٧) ، ومن ذلك أيضاً " تصفية فلاح عجوز اعتاد المرور بشارعنا مُحَمَّلاً بأدواته المعهودة للاعتناء بأشجار النخيل لقاء مبالغ متواضعة " (٣٨) . ومن صور عدم الوعي لهذا الخراب وفقدان هوية المواطنة وتفتت العلاقة القائمة بين المواطنين وانسلاخهم حتى عن قضاياهم المصيرية من دون طرح لروح التسامح ، فقد شاع القتل والترهيب وكأنه صار ثقافة جديدة أنتجت الظروف والسياسات التي استغلت الحمية البدوية في الذات العراقية ؛ لتحولهم من مرحلة الوداعة إلى السطوة والعنف تجاه الآخر ، فيحیی وهو يصور لنا مظاهر الجهل التي طفحت أفعالها على الواقع متحدثاً " على مضض عن مجموعات سرية تعرف باسم (فرق الموت) لاتقتصر مهمتها على تصفية الفئات التي ذكرتها ، بل تشمل الأخذ بالنأر والانتقام وما أشبه من نوازع بدائية تطفو على السطح عادة حينما يفتقد الأمن " (٣٩) .

و يذكر لنا الراوي أن الفضائيات من نتائج التسلط وغياب العدالة ، وهو يسأل بهجت عن عدم انضمامه لهؤلاء اللصوص الرعاع ماداموا موضع إعجابه وتقديره ، " فأجابني بعدما رمقني بنظرة خاطفة شفعتها بابتسامة :
- دعهم يشبعوا نوازعهم المكبوتة يا رجل ، فقد آن لهم أن يستردوا جزءاً يسيراً من خسائرهم المتوارثة منذ أجيال وأجيال ! " (٤٠) وهذا ما يمثل تسلط الحكومات السابقة من دون أن ترعوي لحياة الناس؛ مما جعل الناهبين يفكرون تفكيراً سالباً .

ومما لايقبل الشك " وطوال تنقلنا من بائع إلى آخر كان بهجت يحرص على أن يردد على مسمع كل واحد منهم عبارة معينة بانت لديه كالتلزمة : - ابشر يا أخي ابشر ، فقد آن لك التمتع بثروة بلادك بعد التحرر من نير الطاغية ! " (٤١)

أما عنف السلطة قبل الاحتلال فكان على أسباب لربما لاتساوي فتات يضيع بسببها الإنسان في دهاليز النسيان، فما قاله بهجت إلى الراوي : " انظر ... انظر ... ألم يكن عرض هذا الكتاب على الرصيف قبل التاسع من نيسان كفيلاً باختفاء البائع المسكين وراء الشمس " (٤٢) ؛ مما يدل على المفارقة التي حدثت نتيجة انفجار الناس الذين كانوا يُظلمون بسبب كتاب يتحدث عن الحرية أو كتاب ديني يعلم الناس كيف لا يرضخ المسلم للظلم إبان حكم النظام السابق .

وقد نتج من التسلط ظاهرة الحرمان بسبب الحصار الاقتصادي الذي طال الشعب في تسعينيات القرن الماضي ، فقد مثل أيضاً العنف الجائر ؛ لما للسياسات الداخلية والخارجية التي أدت إلى فرضه الدول الامبريالية الكبرى على العراق بحجة امتلاكه أسلحة الدمار الشامل ، ولعل هذا العنف ألقى تبعاته على المواطنين الأبرياء ، فكان ذلك سبباً مهماً في ترسيخ ظاهرة الانسلاخ عن الهوية فعن لسان بدر ، وهو يتحدث

عن الأمريكيان قبل غزوه " إنما سيتجملون بالصبر تاركين لهذا الحصار البربري الذي فرضوه علينا بأداتهم المتمثلة بالأمم المتحدة ، أن يفعل فعله على مهل " (٤٣) .

كما أنّ الراوي يحدثنا عن نفسه وعن صديقه بدر الذي كان يمدله يد العون أيام الحصار يقول : " لقد بقي بدر مصدر إلهام لي ... من مد يد العون لي في تلك الفترة العصيبة التي كوّت العراقيين دون استثناء بجحيمها فترة الحصار الرهيبة " (٤٤) ، ولعل حصار الشعوب يترك قلقاً كبيراً يجعل من المواطن يشعر بأنّه مهدد بالانهيار ، ولاسيما حين يكتسب شرعنة الأمم المتحدة والدول الكبرى ، فيكون بذلك ردة فعل عنيفة تجاه النظام القائم الذي يعتقدّه المواطن أنه سبب ذلك ، ولعلنا نعزو أحد أسبابه لعنجهية النظام واستلابه حتى حقوق الآخر ومن دول الجوار التي كانت هي سبب يضاف لأسباب الحصار الذي فرض على الشعب لا على الحكومة ، مما سبب الجوع والحرمان .

ولعل صورة العوز والحرمان نجدها قد تجسدت في الرواية مومناً لهول الحصار ، إذ أتخنت ويلات المتسولين والحمالين ، " وفي مقدمتهم عصفور بطبيعة الحال ، وكأنه خرج بتلك الهيئة من تحت ريشة أحد رسامي الكاريكاتير المولعين بجمع المتناقضات كلها في شخص واحد : عيانا جاحظتان حولان في وجه ضامر بوجنتين ناتئتين وساعدان نحيلان ينتهيان بقبضتين ضخمتين وساقان مقوسان معروقتان تستندان إلى قدمين مفلطحتين عاريتين صيفاً وشتاءً ... وكان ثمة عجوز يتجول على نقر عصا لم يكن يتورع عن أن ينال بها أقرب الناس إليه بضربات عشوائية مرسللاً حوله الشتائم واللعنات عوضاً عن كلمات الاستعطاف والدعاء المعهودة " (٤٥) . ويبدو أنّه يشير بعصفور ذلك الرجل الذي أنهكت قواه سني الحصار ، وقد كان رجلاً ممتلئاً الجثة بدليل قبضتيه الضخمتين إلا أنه صار هزيل الجسم فيما بعد .

أما صورة المتسول الذي يخالف طبعه طباع أمثاله كذلك لعصف الحصار جعل من نفسيته عدوانية للجفاف الذي أرهق الناس ، ومن ثم جفّت أيديهم من العطاء ؛ فصار كارهاً لهم متأزم النفس؛ مما جعل تصرفاته عدوانية تجاه الجميع .

ولعل الحرمان يمثل صورة من صور العنف الذي وُلد لدى الأفراد حب المال ؛ فجعل هوس الناس في الحصول عليه لسد رمقهم ، ومن ذلك يشير الراوي إلى يحيى " كان المال عقدة حياة يحيى: لاشيء يشغله سوى التفكير بالوسائل التي تكفل له حياة أفضل حتى بلغ به الأمر أنّه وجد في الحرب الموشكة على الاندلاع فرصة ذهبية لاستثمار ما يملك من مدخرات شحيحة بشراء مواد غذائية ... لبييعها عند احتدام الأحداث بأسعار مناسبة " (٤٦) في إشارة إلى القحط المستشري في البلاد في زمني الحصار والحرب .

فالحصار الاقتصادي الذي سرق منهم انتماءاتهم لأخلاقهم ؛ مما جعل البعض سارقاً محترفاً لسد رمقه ، فعن شخصية الراوي : " وفي طريقنا إلى محل الاستساخ ذاك محملين بصيدنا الثمين أوضح رياض أنّ يحيى هذا موضع ثقة بدر ، لايسمح لغيره بتخطي عتبة بيته والعبث بوثائقه ؛ ليقينه أنّ الجميع لصوص : يتحينون الفرصة الملائمة لاختلاس ما يسعهم اختلاسه من كنوزه التاريخية " (٤٧) .

وفي حديث شخصية الراوي مع دنيا ، وهي تحاول إعادة العلاقة بينه وبين يحيى إذ تقول : " هكذا تحتقره دون أن تعرف دافعه لعمله ذاك ؟ - وما يكون دافعه غير تسويغ عمله بذكر الأسباب المعهودة : فقره الأبدي ، وطفولته البائسة ، وقسوة أبيه (المبيضجي) ، وهو يتمايل يميناً وشمالاً في تجليته للأواني النحاسية ، وقسره على زواج مبكر ؛ لأن من تزوجها كانت دون مهر وأنها ... " (٤٨).

ومن مظاهر التسلط حالة الضياع التي عاشها الإنسان العراقي ، ويبدو شعور الإنسان بضياعه هو واحد من أهم أسباب تأزم الهوية ، ولعل أسبابه الحرب القادمة التي يستشعرها الفرد العراقي والذي جسدت وقائعها الرواية حسب رؤية كاتبها ، فقد أخذت تلك الفكرة مساحة واسعة من سطورها ، فقد همّ الراوي كثيراً بالحرب التي ستقع حتى تعافل هويته الوطنية والمكانية والسفر إلى مدينة الأسلاف ؛ كي ينجو وعائلته من هول الدمار الذي ستخلفه الحرب " وكانت الأحاديث التي تثار عادةً تصيبي باليأس؛ ذلك لأنها تنطلق إلى مجريات الحرب الوشيكة وما سيتمخض عنها من مأسٍ ، متطرفة إلى ذكر حروب سابقة وما ارتبطت بها من ويلات ، ... إن كل ما يحيط بي من سابلة وشوارع وبنائيات وسيارات مهددة بالفناء " (٤٩).

وحيثما التقى الراوي بدنيا المسيحية " وهل اختلف المسيحيون في عمق معاناتهم ، في فترة الحصار عن المسلمين ... حيث لاسبيل لي إلى الحصول على خبزي (كفاف يومي) إلا بشق النفس ... نحن سلالة آيلة إلى الانقراض " (٥٠) ما يمثل ذلك القسوة التي فرضت على الشعب العراقي ثم جاءت بعدها الحرب المريرة عام ٢٠٠٣م ؛ لاحتلال البلاد ، ومدى تأثير هذه الحرب مباشرة على المواطنين ، وعن زوجة الراوي ، وهي تقص ما تراه من جنث لمغدورين مرمية في أكوام النفايات : " لقد باتت جنث الناس - مثل جنث الكلاب النافقة - ترمى على المزابل دون وجود من يجروء على إخلائها خوفاً من أن تكون مفخخة ، ألا يجعلك ذلك تدير ظهرك لهذا الوطن المنحوس دون أي شعور بالندم ؟ " (٥١)

كذلك عمليات الاختطاف ومنه اختطاف يحيى حين بلغت دنيا الراوي باختطافه ، وهو يسألها عن ذلك فردت عليه : " كما يُخطف آلاف الناس - قصدي هو هل أنت واثقة من حصول ذلك - طبعاً واثقة ... وقد اتصل خاطفوه بزوجته وطالبوها بدفع فدية لقاء إطلاقه " (٥٢).

أما المرحلة التي عمّت البلاد من تقتيل هو السيارات المفخخة إبان الحرب الطائفية وامتداداتها وتحول الهوية من الولاء للوطن إلى الولاء للطائفة والعرق " فالسيارات المفخخة دأبة على أداء مهمتها: لا يكاد يمر يوم لا تنفجر فيه أكثر من واحدة وسط حشود الناس ، مخلفة وراءها الجنث والأشلاء والدماء وصفير عربات الإسعاف ، وهي تحاول عبثاً اختراق الزحام ، يحملها وصولاً إلى أقرب المستشفيات " (٥٣).

كما أنّ الخوف والذعر الذي أناخ ركابه في كل مكان " مهند سالم ... صاح قائلاً ... إن حيّه تحول إلى معتقل لا ينقصه سوى سجان مزود بمفتاح يتحكم في أوقات خروجه من بيته وعودته إليه ... وعلى النقيض منه كان هاني الأحمد دائم الانشغال بنفسه ... حاثاً إياي على الإسراع بالمغادرة وحين سألته في إحدى المرات ، عمّا يقلقه ؟ اعترف لي هامساً بأنه يعاني من (رهاب) مجالس الفاتحة ، و لاسيما حين تقام في سرداق منصوب وسط الشارع ، إذ لايبعد أن تقتحم سيارة مفخخة كما حدث أكثر من مرة في هذه الأيام " (٥٤).

دنيا وهي حائرة بحالها بعد زواج يحيى منها واختطافه مع حملها منه ، لتهاجر مستقرة في أمريكا وهي تترك رسالة للراوي تخاطبه فيها : " لا تسألني عن البقعة التي استقر بي المقام فيها خلف (بحر الظلمات) ، فكل بقاع الأرض لم تعد تعني لدي شيئاً منذ خيم هذا الليل الحزين على وطني فهجرته دون وداع ، مستهديةً سبيلي بنعيب الغراب الذي سيظل يلاحقني أينما وليت بوجهي ، فكل البقاع تتشابه سيدي العزيز مادامت جهنم قد أمست بحجم الكون كله " (٥٥) .

ولعل الاستهداف الأمريكي منذ عاصفة الصحراء ، وحتى معركة الحواسم ما أربع المواطن العراقي، فجعله يتلبس الخوف واليأس " إنَّ منظر المستقبل إنما يستبدل ما هنا قيمة سيكولوجية موجبة وناجعة ، هي قيمة الأمل بقيمة سيكولوجية سالبة ومدمرة وسودائية . أو ليئت أحاسيس الخوف والرعب واليأس غير مشاعر ارتكاسية ، قد لا تبقى من النوع البشري غير الانتحاريين والعدميين ؟ وماذا يكون المستقبل من دون أمل غير مستقبل بلا أفق " (٥٦) .

والشعور بالضيق بحكم الدكتاتوريات والأحزاب المنتفذة القاسي يجعل من الإنسان يعيش الشعور بالضيق ، وهو شعور نفسي يطبق على تفكير الإنسان ، فيجعله مهزوماً غير آبه بتطلعاته التي انطفت جذوتها لانغلاق الآفاق حين يرى المنتفدون هم من يتلاعب بمقدرات الناس ؛ لذا نجد الروائي يستجلي " الحضور الواضح والصريح للواقع السياسي في الكتابة الروائية ، وما يرافق ذلك من تحولات في الوعي والفكر ، ينعكس بدوره على المظهر العام للشخصيات الروائية بما يحدد مسار حياتها وسلوكها " (٥٧) .

المبحث الثالث

نسق العولمة

إنَّ ما جاءت به الرأسمالية من فكر يتساق معهما بما يطلق عليه العولمة هو واحد من الأسباب التي أضرت بالبلدان النامية اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً ، ويبدو أنَّ الدول الرأسمالية ، ومنها أمريكا قد أسست في نهاية القرن العشرين إلى قيام مشروعها بما يسمى مركزية الحضارة التي نتجت عنها العولمة ، وهي تعد من تحديات التسابق الحضاري ، فأصبحت هذه العولمة لديهم " طابق جديد في بناء الرأسمالية الشامخ طابق أعلى يهيمن على الجميع يراقبهم ويحرمهم من خلواتهم الخاصة ... فهو يمنح الحرية المطلقة لحركة الأموال والبضائع ويمنع حرية الأشخاص وحركتهم " (٥٨) ، فيربطهم تحت وطأتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وهي وجهة إستعمارية تهيمن على البلدان الأضعف ثقافياً واقتصادياً ، إذ أنَّ العولمة ليست حوار حضارات، إنَّما غلبة الأقوى على الأضعف وصهره بثقافته ومسح هويته سواء أكانت دينية أو وطنية وجعل شعوب العالم تسير في حلقة عبر الأنترنت ، أو وسائل الإعلام المتنوعة، ولعل في الانصهار هذا تظهر ثقافة جديدة ، يقول عبد الله عبد الدائم " وغنى عن البيان أن مثل هذا التفاعل بين الثقافات العالمية ينبغي أن يؤدي في النهاية إلى تقارب عملي قوامه

وضع مجموعة من الثوابت العالمية الثقافية التي نبغي أن تعمل الثقافات جميعها على احترامها وتعميق جذورها ، وتوليد مثل هذه الثوابت وقبولها أمر ممكن إذا هو تمّ عن طريق الحوار الحقيقي ، وحل محل فرض ثوابت ثقافة معينة أو بلد معين على العالم كله، والادعاء بأنّها هي وحدها الثوابت العالمية " (٥٩) ، ويبدو خلال ما تطرحه أفكار العولمة لاينسجم ومتطلبات كثير من الشعوب ، بل يلحق بها الضرر لما يفتت ارتباطها بمبادئها وقيمها التي تؤمن بها ، ومن ثم جعلها تعيش قلقاً بين الارتباط والانفصال عن الهوية الوطنية .

فالعولمة هي واحدة من أهم دواعي فقدان الهوية ، فعندما يعيش الإنسان في وسط محدود ومتخلف جداً وغارق في قيم متخلفة سيجد مصاعباً لاحصر لها في معالجة مشكلات حياته حتى وإن كانت تلك المشكلات بسيطة ونافهة ، فالممارسة العملية سواء أكانت الدراسية أو العملية كفيلة في أن تجعل الإنسان يواكب الحياة ، ويبحث عن انتماءاته تجاه الوطن وقضاياها (٦٠) ، ولعل الحصار الاقتصادي الذي فرضته الدول الكبرى لاسيما أمريكا هو جزء مهم من لعبة العولمة ، إذ جعلت من البلد يتأخر ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً ، بعدما فرضت عليه الأحكام الجائرة ؛ مما جعل أبناء الشعب لايهتمون إلا بمعيشتهم من دون التوجه إلى مصادر الثقافة والانتماء للهوية، إذ نرى الرواية صوّرت التخلف الذي حدق أولاً بالمؤسسات الحكومية والمدنية ، يطالعنا الراوي عن جهل من ينتسب إلى المؤسسة الأمنية ، وهو حمزة مقطاطة الذي يمثل صورة من صور المنظمة الحزبية في الأسلاف " يحدثني هذه المرة عن متابعته لرواياتي ولا سيما تلك الثلاثية التي تدور أحداثها في مدينة الأسلاف : الرواق ، وعندما يخلق الباشق ، واليوم السابع ، أصغيت إليه على امتداد الطريق دون أن أعمد إلى تصحيح عناوين رواياتي ، إذ من الواضح أنه لم يقرأ أية واحدة منها " (٦١) ، ثم مسؤول المنظمة أيضاً كرر الروايات بشكل مخطوء : " أهلاً ... أهلاً بروائينا الكبير منذ قراءتي لثلاثيتك الرواق ، وعندما يخلق الباشق، واليوم السابع وأنا أتلف للقائك " (٦٢) ، يمثل ذلك الجهل البوابة الكبرى التي بإمكان الأمريكي أن يغفلوا ما يريدون من إشاعة أفكار تجاه شعب مثل العراق حين أودوا بمنابع ثقافته ومعرفته التي كان يستقيها من داخل البلاد و خارجها .

ويدخل ضمن العولمة في رواية ليل علي بابا الحزين العدو الذي يتمثل بالامريكان ، إذ لم يحرصوا على ثروات البلاد فقط ، بل كان منذ دخولهم العراق يشجعون على النهب والسلب وأنّ في ذهنيهم علي بابا العراقي الذي انبثقت قصته في بغداد من حكايا ألف ليلة وليلة ، وكانوا حريصين على أن يشجعوا الناس على اقتراف ذلك ؛ لتحقيق مآربهم خلال تطبيق مشروعهم بما يعرف بنظرية الفوضى التي كانت تعمل بها منذ عقود ، والتكتيك لها من أجل السيطرة " على منابع النفط والمخزون العراقي تحديداً ، يتم الاعتماد على البلبلة والخواء ؛ لإدخال البلاد في ما يسمى في هذه النظرية ، بعدم الاستقرار البناء ذلك أنّ عدم الاستقرار الأمني والإقتصادي والسياسي والاجتماعي يسمح بإعادة بناء البلاد على نحو يناسب المصالح التي تنظر لها المؤسسة الفكرية الأمريكية " (٦٣) ، ومن ذلك ما ورد في الرواية : " وكان آخرون يظهرون ويخنفون من خلال النواذ في صعودهم وهبوطهم سلاسل إحدى الدوائر التابعة للجنة الأولمبية قاذفين إلى الشارع بمضارب تنس وأكياس بلاستيكية مملوءة بكرات القدم الجلدية والسلة المطاطية ، المارقة... فأجابهم رجال المارينز بعاصفة ضحك زاد عليها أحدهم بأن ردد وهو يهز إبهامه في الهواء :

- برافو ألي بابا ... برافو ألي بابا " (٦٤) .

ولعل الفوضى التي هي ثورة ضد العقلانية والتقليل من مركزية المركز (السلطوي) بما نسميه القانون كذلك خلخلة أسس ومرتكزات التصور الديني أي القوانين السماوية ، ومن خلال هذا الإجراء فيما تراه العولمة الاعتراف بالآخر المضطهد ؛ لمنحه إرادة حرة لها حق الاختلاف (٦٥) ، ويبدو أن هذه الطروحات أفادت منه القوى الرأسمالية ، ونقلتها للشعوب الأضعف لخلق الفوضى في البلاد وتحطيم الاستراتيجيات الكبرى لديهم ومن ثم تضييع هويتهم الوطنية فكان أحد مرتكزات تفكيرهم هو التشجيع على النهب والسلب والحرق والتخريب .

ومنه ما قاله يحيى لشخصية الراوي : " يفترض بك إعداد نفسك للعودة بإسرتك إلى بغداد ؛ ذلك ؛ لأنّ الحرائق قد بدأت والأمريكان الذين أسهموا في إضرارها هم آخر من يفكرون في إطفائها ، وأشار نحو سحب دخان الحرائق ، وهي تتلوى صاعدة من حولي ؛ لتملاً بسوادها زرقة سماء الأسلاف" (٦٦) .

ومن مظاهر العولمة هو تضييع الأخلاق من خلال إغراق البلاد في جعل أبنائه تحتك بثقافات أخلاقية جديدة لاتنسجم وما تربوا عليها ، وبالرذيلة أيضاً أو ما يتوقع الإفادة لإشاعتها ومنها : " بيع أجهزة الستلايت كان قد أصبح ظاهرة لافتة للنظر ، تكاد الأرصفة تضيق بصحون الفضائيات المعروضة أمام المحلات ، وكانت ثمة شوارع جانبية سادت فيها ظاهرة أخرى مثل بيع المشروبات الكحولية ... كما شاع بيع الأقراص المدمجة الخاصة بالأفلام الإباحية ، بعدما أخذت بعض دور السينما العريقة في جانب الرصافة تنافس بعضها بعضاً في عرض أفلام مماثلة" (٦٧) ، وهي أسباب غير مباشرة ؛ لتحطيم الذات ، ولو كانت العدالة مشاعة وفكرة الخير للجميع جزء من فلسفة الحكومات التربوية ؛ لتحقيق الوعي بهوية المواطنة ؛ وذلك من طريق " التحام الفرد والمجتمع ، وعدم التمييز بين المصلحة الخاصة والمصلحة العامة" (٦٨) .

ولعل استئثار الغرب في حرصهم فرض حضارتهم على الحضارات المغايرة ؛ لتشكّل صورة العالم بطرائق جديدة ، بامتلاكها الإرادة لتحقيق ذلك ، وهي تطرح شعار مركزية الحضارة بما يسمى (العولمة)، معلنة أنّها تعمل على تحقيق مشروعها العالمي (الكوني) ، إذ لا يمكن لأية أمة من الأمم الفكاك منه إلا إذا ما اختارت البقاء على الهامش ، وهي ترمي بنفسها في التيه والضلال ؛ مما دعا الأمريكان في غزومهم تضييع العراقيين بعدما صار العالم قرية من خلال تمكن الأقوياء وقدرتهم على توصيل معلوماتهم وثقافتهم وأخبارهم إلى الآخرين . أما ما قام به أصحاب العولمة بوصفهم أصحاب أفكار هدامة لأفكار الآخرين في غابة تزدهم بمختلف أنواع الوحوش المتصارعة ، وكان من تقننهم في ذلك فسح المجال بالنهب والسلب والتقتيل حين دخولهم العراق من أجل ضياع هوية مواطنة التي تمت لبلدهم ، ومن ثم البحث عن هوية جديدة وواقع جديد ، فمما وثّقه الراوي " الكارثة إنّ هذه الأعمال الفظيعة كانت تجري على امتداد المدينة وتحت سمع المارينز الأمريكيين وبصرهم دون أن يتدخلوا ... في الأمر مكثفين بالسخرية مما يجري ، مشبهين العراقيين دون استثناء بـ (علي بابا) وخصومه اللصوص الأربعة" (٦٩) ، ثم تلتها ظاهرة تغيير وغسل لانتزاع الهوية من خلال إلحاق أفكار الشعب بالفكر الغربي ، وهم المتعطشون لكل شيء جديد وكل ما هم بحاجة إليه ، فيورد لنا الراوي صوراً عن أيام السلب والنهب مصحوباً بـ " بيع علبه الجعة المبردة مع المقبلات لتكرع (على الماشي) كما تشرب المرطبات

تماماً^(٧٠) وهذا ما يمنحنا دليلاً على مظاهر انسلاخ المواطن من واقعه ومبادئه والتشبه بثقافة الأمريكيان فيما نادوا له بمركزية الحضارة .

ومن صور تضييع الهوية ما نتج عن سياسة أمريكا في الاشراف على الدستور في ما يقوم به المرشحون للانتخابات من تضليل الناس بشعاراتهم الخادعة وإغرائهم بتوزيع هدايا عينية على المواطنين^(٧١) ، وكان منظر هؤلاء المقترعين ، وهم يقفون طوابير تزحف ببطء نحو الصناديق ؛ ليصوتوا قبل أن ينسحبوا رافعين سباباتهم المصبوغة بالحبر البنفسجي عالياً ، يستدعي التأمل حقاً : فخلف كل وجه مستبشر كانت ثمة آمال وأحلام تنتظر التحقيق " (٧٢) .

ومن مظاهر العولمة هو استهداف طاقات الوطن البشرية ومنهم " الاطباء والاساتذة الجامعيون والعسكريون السابقون الذي تجري تصفيتهم بشكل يومي"^(٧٣) ، وهذا ما تغض أمريكا بصرها عنه ، كي لاتجعل من المنقذين والوطنيين ذخيرة حية تراكمت لديها روح المواطنة الحقة التي يمكنها أن تكون معرقلاً لمشروعها في البلاد بعدما حاولت أن تقضي على روح رجل الدين الوطنية وإغراق فكره بثقافة الطائفية والعودة للاقتتال من أجلها .

وليست العولمة ابنة مابعد الكولونيالية ، بل يبدو أنها رفيقه الاحتلالات الغربية للشرق في تعاملها مع شعوب المنطقة منذ مطلع العصر الحديث .

فمن مظاهرها التي جعلت من الكثيرين أن يتزاحموا في فقدان هويتهم الوطنية وجعلهم يعملون لصالح الدول الاجنبية لاسيما بريطانيا من خلال تجهيل الناس ذلك ما يورده بدر في مطلع القرن العشرين وحديثه عن البريطاني تيلر تومسون المعروف بالمنقّب عن الآثار: " إنَّ التنقيب عن الاثار لم يكن سوى ستار يعمل صاحب من ورائه على تحريض الشباب ضد الدولة العثمانية التي كان يسميها بـ (الرجل المريض) مجتداً إياهم لصالح بلاده بريطانيا العظمى " (٧٤) ، وهذا يدل على أنّ المشروع الاستعماري لما أطلق عليه فيما بعد بمصطلح العولمة ، وما قامت به فرنسا في الجزائر من تضييع لهويتهم الثقافية والعمل على تغيير حتى لغتهم، وجعل لغتها هي الرسمية في البلاد .

وأيضاً تهديم ركائز العادات والتقاليد وإضعاف عرى التمسك بالدين والمواطنة وذلك من طريق إنشاء المدارس الأمريكية في بغداد ودراسة بدر فيها في العهد الملكي ، ونرى ذلك حين سأل فرج أخاه الأصغر بدر عندما سأله الأخير : " - ولكن ما علاقة الجامع بجريدة تناهض الدين ؟ - ممتاز ... سؤال ذكي لا يصدر عنّ هو أكبر منك بالعمر ، يدل على أنّهم أزلوا بمناهجهم الاستعمارية من عقلك صداً مدينة الأسلاف المتراكم " (٧٥) .

ولعل الإرسالات التبشيرية البريطانية والامريكية منذ ١٨٨٩ م " أغلبهم أطباء من خريجي أعرق الجامعات الأمريكية ، تقف من ورائهم مؤسسات دينية تموّلهم بما يلزمهم مادياً ومعنوياً ؛ سعياً للتصير أناس بسطاء أميين يقصدون معتقداتهم الدينية ويستمتتون دفاعاً عنها " (٧٦) .

كل ذلك أدى إلى تحطيم بنية المجتمع العراقي ، وجعله خاوياً من أدنى إرادة في تقوية عرى انتمائه لوطنه الذي استبيح من لدن الأفكار التي أطاحت بهويته بعدما كان ينتمي إليها في تلك المرحلة من تاريخه المعاصر والتي وجدت خير مدعاة لها في ظل تلك الظروف العصبية .

المبحث الرابع

اللاشعور الفردي والجمعي

إنَّ اللاشعور يمثل الاستشعار النفسي والانكفاء على الأنا ؛ فيطغى المضمَر والمقنَّع ؛ ليعبَّر عنه في لحظات لاشعورية ، وقد قُسم اللاشعور على نحوين الأول : اللاشعور الفردي ، وهو ما يضم تجارب فردية حبيسة ماكنة في أعماق الفرد لا يمكنه إظهارها في حالات اعتيادية إلا حينما يمر بظروف ترغمه على ذلك ، والآخر اللاشعور الجمعي وهو جماع تجارب الإنسانية ، الذي انحدرت إلينا من أسلافنا البدائيين عابرة نفوس الأجداد والآباء^(٧٧) ، ولعل الذات العربية لاسيما العراقية هي مستمدة من بداوة الأسلاف ؛ ما جعل البعض منهم يعبرون عن بداوتهم على الرغم من أنَّهم يقطنون المدن والمتمثلة في سلوك البدوي ولاسيما في الغزو والعصبية والثأر ، فالغنيمة لديهم صارت ثأراً يأخذونه من الحكومة التي حرمتهم من أثر الحروب غير المبررة والحصار الجائر، كما يعتقد الكثير منهم معززين فيه نقصهم الذي فقده ؛ ليمألوه بما يحققونه من سلب ونهب وفوضى ضارية " ذلك أنَّ اللاشعور على العموم مهمته تعويضية"^(٧٨) ، ويرى غوستاف لوبون في كتابه سيكولوجية الجماهير يشير إلى دور اللاوعي في حسم السلوك ، إذ يرى أنَّ روح العرق الذي ينتمي إليه الفرد " ليس عائداً إلى أن يطابق بين العرق والثقافة أو التراث ، وإنما ؛ لأنه يؤمن بوجود تراكمات موروثية"^(٧٩) مصحوباً بضعف القوانين كما أنَّ أفعالنا الواعية " متفرعة عن جوهر لا واع مشكَّل من التأثيرات الوراثية بشكل خاص ، وهذا الجوهر ينطوي على البقايا اللانهائية الموروثة عن الأسلاف ، وهي التي تشكل روح عرق بشري ما "^(٨٠) .

لقد كان " المفكرون قبل فرويد متأثرين بالفلسفة القديمة التي كانت تؤمن بالعقل الظاهر كلَّ الإيمان وتعتبره المسيطر الأكبر على جميع تصرفات الإنسان ، فلم يكن يخطر أنَّ هناك في باطن النفس منطقة غير واعية تعمل وتؤثر من غير أن يشعر بها الإنسان "^(٨١) ، وهو ما يدفع بالناس أن تفعل أفعالاً لاتفكر في سبب إقامتها .

ويبدو أنَّ المجتمعات " مركبة من : أنساق ثقافية مختلفة ... بما يفيد أنَّ هذا الواقع متعدد المعنى ملتبس الدلالة ، كثيف المفهوم ، متوتر الوجهة ، إشكالي القضية والأطروحة ؛ لذا فهو يحتمل غير قراءة تسهم في تشكيلة ظهوره ، وبالتالي فإنه يخرج عن منطق المطابقة والشفافية والثبات والوحدانية ؛ لينفتح على كل الاحتمالات والمفاجآت هذا شأن كل واقع : إنَّ هويته أو ثمرته إنَّما تتوقف على طريقة التعاطي معه سلباً أو إيجاباً فقراً أو ثراءً ، خراباً أو بناءً "^(٨٢) .

ويبدو أنَّ الانتماء اللاشعوري يوِّد فقدان الهوية الوطنية في كثير من الأحيان بوصفها مكتسبة ، وقد نرى سيادة اللاشعور على مقومات الشعور الوطني في حديث الراوي عن إهداء بدر له مجلتيْن أمريكيتين ، يقول : " وقد تنازل لي عنهما بدر في لحظة كرم مفاجئة ؛ وذلك ؛ لأنه كان يعتز بهما بالغ الاعتزاز ؛ لكون (المس بيل)

نفسها هي التي أهدتها إليه قبيل وفاتها بأسبوع^(٨٣)، فيرى أنّ سيدة فاضلة بوزن المس بيل هي من أهدته ذلك ، وهي تنتمي إلى بلد احتل نصف العالم ، وهو من يسير شؤون البلاد والعباد بفعل هيمنته ، وهذا يشير إلى السلوك اللاوعي ، إذ تجر الحمية البعض إلى الإعجاب بالأقوى ؛ من أجل إملاء نقصهم تجاه ما يستشعرونه من ضياع حقوقهم كما أشرنا . ويجسد الكاتب في روايته صوراً متحركة للنهب فيروي قائلاً :

"ومرّت لحظات ونحن نحث عبود على الإسراع بإخبارنا بما يجري : - يا إلهي ... يبدو أنهم حشد من اللصوص ينتقلون بين الغرف كالمجانين مختطفين كل ما تناله أيديهم"^(٨٤) .

ومنه أيضاً أنّ " أغلب دوائر الدولة سرقت من قبل العاملين فيها خذ أعضاء اللجنة الأولمبية في الأسلاف مثلاً : فهم لم يكتفوا بإفراغ البناية ذات الطبقات المتعددة من محتوياتها فقط ، بل عمدوا إلى انتزاع الأبواب والشبابيك من مواضعها ؛ ليبيعوها علناً دون حياء أو خجل"^(٨٥) ؛ مما يدل على أنّ من يؤتمن لا يمكنه الحفاظ على الأمانة بدافع لاشعوري ، وكأنّ ما في حوزته من ملك الدولة قد صار له .

ومن تراكمات اللاوعي هو السيادة والسلطة لغير العراقيين منذ سقوط بغداد ١٢٥٨ م ، بينما العراقيون مجرد أسماء في لائحة الحكم ، مما ولد انفصام في الهوية في عمق الذات العراقية ، فعن لسان فرج : " ... هنا يشغل وزراء عراقيون لا يملكون من أمرهم شيئاً غرف هذه القلعة الضخمة التي طالما رجّعت جدرانها أصداء الأصوات ، وهي تردد نصوص الفرمانات الهيامونية القاضية بتعيين الولاة العثمانيين على بغداد ، وكأنما كُتِبَ على هذا البلد المنحوس أنّ يُحكّم من قبل الأجانب "^(٨٦) ، وكأنه يرمي إلى استمرار الاحتلالات منذ عهد سبقت مطلع القرن العشرين ، وما تزال السيطرة الاستعمارية المتمثلة بالاحتلال الأمريكي . ثم يقص فرج لأخيه بدر في ذلك التاريخ ، وهو يسرد تلك الأحداث للراوي بعدما قص له كيف المس بيل نصبت الملك فيصل على العراق " ... وليت الأمر توقف عند هذا الحد، فعند إعادة ترتيب ألوية العراق عيّنوا لكل متصرف لواء مشاوراً بريطانياً ... وكذلك الأمر في الأفضية والنواحي ، فجانب كل قائمقام مدير ناحية ثمة مسؤول متعاطف مع سلطة الاحتلال ..."^(٨٧) .

وعلى هذا الواقع تأسس في اللاوعي الجمعي أنّ البلد هو ليس ملك أبنائه ، والراوي معلقاً : " التاريخ يعيد نفسه ، ولكن على شكل مهزلة كما هو معروف"^(٨٨) ، ويبدو أنّ سرقة الآثار قبل وبعد الاحتلال ، وما بعد سقوط النظام عام ٢٠٠٣م الشعور الماكت في لاوعي الإنسان العراقي نتيجة الاحتلالات هو ما يجعل ممن تسول نفسه سرقة الآثار منذ ذلك الوقت وإلى ما كان عليه إبان الاحتلال الأمريكي ، فالشعور هو ضياع البلد من قبل غرباء آثروا إلا أن ينهبوا ويسلبوا خيراته ؛ مما دعا إلى التمرد على الهوية الوطنية التي يراها البعض أنّها قد سحقت وغابت عنه فما عادت هويته .

ويبدو أنّ كثيراً من تصرفات البشر تصدر عن قصدية تتجلى فيها العاطفة " وقد نوه (شيلر) إلى أنّ هناك أمراً قديماً يسبق الشعور يطلعنا على مضمون القيمة قبل ارتباط هذا المضمون بموضوع ما "^(٨٩) وهو الأمر القبلي لربما تطغى عليه العاطفة قبل الشعور بالمسؤولية الوطنية ، والقبل هنا الحقد المتلجج داخل النفس أو الطمع والجشع ومنه سيكولوجية الجماهير التي يدفع بعضها البعض في فعل قرره الجمهور ومنه ما وصفه الراوي : أنّ

من كان في السرداب الذي اعتقل فيه وبلا وعي فيتسابق " عطا وصبيه في ارتقاء درجات السلم ليسهما بدورهما في السلب" (٩٠) على الرغم من أنهما كانا في لحظتها محجوزين في مقر الفرقة الحزبية بعدما رأيا أهل المدينة من اللصوص يسلبون المقر ، مما دفعهم أن يشاركوا الآخرين بالتهب ، كما أن التربية الإعلامية التفاضلية -ومنذ مدة طويلة من الزمن - للأطفال والمراهقين مما فيها من تقنيات الجريمة والعنف هي الأخرى عمقت في نفوس الكثير عدم الرضا عن حياتهم (٩١) .

ومن مظاهر اللاشعور هي الازدواجية ، ويبدو أن المجتمع العراقي في كتاب (دراسة في طبيعة المجتمع العراقي) للدكتور علي الوردي الذي أوضح فيه طبيعة وسلوك العراقيين ، وما فيه من جذور بدوية وريفية ، فإن روح الغزو وتمجيده متأصلة في لاشعورهم الباطن "وقد يصح القول إن الكثيرين منهم متحضرون في الظاهر ، ولكنهم بدويون في الباطن ، وهذا هو الذي جعل معالم الشخصية المزدوجة واسعة الانتشار بينهم" (٩٢) ، وما سرده لنا الراوي أثناء خروجه مع يحيى من السرداب : "خاطبني يحيى ، وقد تقدمني ، وهو يضلع بقدمه مرتقياً درجات السلم حيث فوجئنا بأعداد غفيرة مراهقون دون سن العشرين يرفلون بملابس النوم - الدشاديش والمنامات والتركسوتات _ مزودون بالمفكات والكماشات والمطارق ، وهم منهمكون بمعالجة الأجهزة الكهربائية : مكيفات ، ومراوح ، وثلاجات ، وأجهزة تلفاز ، ومذياع ، وهاتف ، وما أشبه - وثمة آخرون يتعاونون في قلع أبواب وشبابيك ؛ ليحملوها نحو الخارج . وكان عدد آخر منهم يظهر في الطبقة العليا ، وهم يقومون بالأعمال نفسها" (٩٣) ، ذلك ما مثل لديهم ازدواجية التفكير والفعل.

ومن ذلك فيما كان عليه حمزة مقطاطة من تظاهره بالالتزام بمبادئه الحزبية والعقائديه قبل سقوط النظام ، إذ كان يعمل ضمن الفرقة الحزبية ، فبعدما تبدل ذلك النظام " كان يرتدي عوضاً عن ملابسه الزيتونية التي اعتدت أن أراه فيها في الماضي - دشداشة بيضاء بسعة خيمة ، وثمة طاقية باللون نفسه تعلق رأسه ، والعديد من الخواتم الفضية تزين أصابعه الغليظة ! - ذلك من متطلبات حياتنا الجديدة أستاذي ... (أكل عيش) كما يردد المصريون في كلامهم" (٩٤) ، ولعل ما ألفه الراوي نراه يردد يقول : " - لم يعد يدهشني لو صادفت رياض ، وهو يهرول وسط هؤلاء اللصوص" (٩٥) يعزز بذلك هذه الازدواجية فرياض أيضاً كان منتمياً إلى صفوف النظام السابق . وكأننا نجد الراوي يلخص تفكير الانتهازيين ممن عاثوا بالبلاد سوءاً قول حمزة مقطاطة " من يتزوج أمي فهو عمي " (٩٦) ، إذ نلاحظ تلك الازدواجية في تغييب الشخصية الوطنية وإضعاف هويتها بطغيان اللاشعور الجمعي عليها في حالات طارئة يغمرها الجهل في التفكير الصحيح في مثل هكذا لحظات .

ومن نسق اللاشعور طغيان الازدواجية لدى صورة أخرى يقدمها لنا الكاتب عن شخصية بهجت : " والحق أنه كان يدهشني ؛ لانطوائه على تلك الازدواجية الصارخة التي كان يمارسها في حياته وصولاً إلى تحقيق أهدافه ، فكراهيته للنظام السابق مثلاً لم تمنعه من أن يكون على صلة حميمة بالعديد من الحزبيين المتنفذين الذين ضمنوا له ولأفراد أسرته وأقاربه تحقيق أهدافهم ، فزوجته وأولاده وبناته مثلاً كانوا يدرسون في أفضل المدارس والمعاهد الخاصة التي كانت مقتصرة على الحزبيين " (٩٧) .

أما بدر فهو الآخر يحكي عن ازدواجية أخيه فرج الذي يكبره سنأ يقول : " كان ما يدهشني - وبرغم صغر سني - " (٩٨) هو هذا الضرب من الازدواجية الذي ينطوي عليه فرج ؛ فاستقراره في بغداد وتمتعه بخيراتها حصل

بسبب علاقته القديمة بالمستر (تيلر تومسون) الجاسوس البريطاني الذي قدم إلى الأسلاف بصفة منقوب عن الآثار ؛ ليختفي باندلاع الحرب العظمى ، حتى إذا ما احتلت بلاده العراق ظهر في الأسلاف مجدداً ولكن بصفة أول نائب حاكم عسكري على المدينة ، فما سر عداء فرج المستحکم للانكليز ؟ ! ويكون جوابنا هي الازدواجية والكرهية لتيلر تومسون الذي كان يعتدي على والدته . فهو المستفيد لكن في الوقت ذاته يحركه اللاشعور الفردي لتلك الكراهية .

ومن مظاهر الازدواج شخصية يحيى الكذاب الذي كان في زمن النظام يسب قريبه المعدوم ؛ كونه كان متضامياً منه ، وهو الآن مسؤول بعد سقوط النظام " سألني حمزة ، وقد غادر الغرفة الداخلية مطبقاً بابها وراءه بحذر ، فعدت أدقق النظر دون جدوى في وجه صاحب الصورة الذي لم تسبق لي رؤيته - إنها صورة ذلك الغريب الذي أعدم في زمن النظام السابق والذي اعتاد نجيب أن يمطره بأقذع الشتائم واللعنات كلما ورد ذكره زاعماً أنّ صلة القرى التي تربطه به هي سبب استهدافه بحملات الاعتقال بين فينة وأخرى ... إنه لا يكف عن الترحم عليه ؛ لكونه يدين إليه بكل الترف الذي بات يتقلب فيه بسبب تلك الصلة " (٩٩) ، فهذه هي المنفعة التي من ورائها سيواصل النهب من طريق المنصب الذي استغله بحجة أنّ أقاربه قد أعدم ، فتضرر من ذلك النظام شأنه شأن الكثير ممن يحمل الوجهين .

ولعل الازدواجية تغلغت في نفوس كثيرة ومنهم أدياء الدين الذين تشظوا من أجل أطماعهم الدنيوية ، وهم يتصورون زوراً أنّهم أخلاء الله ، ومنهم الشيخ غازي فياض في الرواية وعن شخصية الراوي : " وحين سألت صاحب المقهى عنه لحظة دفعت حسابي أجابني ضاحكاً : تراه مرابطاً في الجامع الكبير على مدار الساعة لاحقاً بالله طبعاً ، بل سعيّاً للفوز بمقعد في البرلمان في الدورة القادمة يعمل منذ الآن على الترويج لحملة الانتخابية " (١٠٠) .

ثم عن لسان الشيخ : " وكان قد اعتمر عمامة ناصعة البياض ، قال عنها حينما رأيته أرمقها بنظرة فضول : - لاتخدع بالمظاهر أستاذي فهي تدخل ضمن عدة الشغل ، وأضاف بطريقته المبطنه الحافلة بالأسرار ، وهو يغمز في اتجاه صحبه الشباب مقهقها بانطلاق : - وهؤلاء (المريدون) هم الذين سينكفون بالشغل نفسه ... بدأ منشراحاً فكها لا يضيره أنّ يسخر من نفسه وخططه التي يسعى من ورائها إلى الحصول على ذلك المقعد البرلماني العتيق " (١٠١) ولعل هذه الازدواجية هي ما اختلط التفكيرين الحضري والآخر البدوي المغروس في أعماق الشخصية العراقية ، ليطفح على السطح مما جعل تأزم الهوية يشتد في كل معترك ، وكل حاجة لإشباع غريزة الذات بما تطمح له من مغنم أو مكسب .

وقد ختم روايته برمزية عاليه ، فهو يذكر قصة عامل الفندق الأعور الذي كان يشتم صبياً يعمل في الفندق كلما فاز عليه في لعبة الشطرنج ... وأخيراً حين فاز الأعور بعد مضي ربح من الزمن " وفي الغرفة استقبلني الصبي ضاحكاً ، وقد انتهى من تهيئة السرير وعلق قبل أن يغادرني حينما قلت له :

- رأيت مبلغ سعادة الأعور بالفوز ؟ - لفرحته ما يسوغها ، فقد فاز عليك بدست تاريخي!

قائلاً :

– هل تصدق أنه فاز بجهد الشخصى ؟ أبدأ بل أتحتُّ له فرصة الفوز بعدما تيقنت من أنه أخذ يفكر جدياً بالاستغناء عني ! «(١٠٢)

ويبدو أن الكاتب يلوح إلى معنيين : الأول هو ادعاء من تسنم مقاليد الحكم بقدرته ليست واقعة صحيحة إنما هي مغنم ومكسب وفرها له المحتل من دون جهد أو قدرة نافذة ، لكن لما رب أرادها المحتل لتحقيق مخططاته النفعية ، مثلما قيام الصبي من تحايل للبقاء في عمله.

ومن ذلك مثل اللاشعور الفردي والجمعي حالة من تأزم الهوية في تلك الظروف الحالكة التي مرَّ بها البلد .

الخاتمة :

ما يلي أهم نتائج الدراسة :

١- كشفت لنا الدراسة أنَّ العمل الروائي يضمّر أنساقاً متعددة هي مجمل ما يحمله من مضامين ومعطيات وسلوك ودوافع للأحداث التي تقوم بها شخصيات الرواية والتي تحقق رؤية الكاتب للموضوع الذي يعالجه .

٢- أكدت الرواية أنَّ البيئة والعوامل الوراثية لها الأثر الكبير في سلوك الإنسان إذ تطغى على كثير من الاعتقادات المكتسبة لاسيما الواعز الوطني التي تكرسه المنظمات والمؤسسات في النفوس ، أما الجذور العميقة التي توطنت داخل النفوس ، فهي لها الغلبة حين تكون الأسباب والمؤثرات كبيرة بحيث يتلاشى المكتسب بينما يظهر ما جبل عليه الفرد أو المجموع .

٣- التسلط والعنف من لدن الحكومات الجائرة على رعيتهما هو ما يُذهب بكثير من الالتزامات الوضعية لاسيما الأخلاقية منها .

٤- للعلومة الدور الكبير في استنزاف قيم المجتمعات وذهابها وانصهارها تحت بوتقتها ، وهي من أشد أعداء الحياة المستقرة للمجتمعات التي تلتزم بعاداتها وتقاليدها . وما وجدناه من دور لها في البلاد أنَّها سعت إلى تأجيج الطائفية وأزمة التصاق الناس بقيمهم ومعتقداتهم وهويتهم الوطنية وحتى الدينية .

٥- الرواية أرخت الواقع العراقي وحجم المؤامرات التي مرَّت بالبلاد عبر تاريخه الحديث .

٦- بيّنت الرواية الشخصية العراقية لاسيما التي عاشت ازدواجية الريف والمدينة وحبها للغلبة وفي أخذ الثأر ، فهي من صفات الريفي الذي قارب في كثير من صفاته حياة البداوة .

الهوامش :

(١) الفلسفة الغربية المعاصرة ، مجموعة من الأكاديميين : ١٤٩٢ / ٢

(٢) ينظر : الإنسان وتطور الدراسات الإنسانية ، د. محسن علي الدلفي : ٩٠ وما بعدها

(٣) إشكالية الهوية في الرواية العربية ، محمد جري جاسم : ١٦-١٧

(٤) ليل علي بابا الحزين ، عبد الخالق الركابي : ص ٧

(٥) ينظر : المصدر نفسه : ٣٢ .

(٦) المصدر نفسه : ٨١

(٧) النقد الأدبي الأمريكي من الثلاثينيات إلى الثمانينيات، فنسنت بي ليتش : ٦٣

(٨) حكم الأزمة ، رائد السوداني : ١ / ١٥٦

(٩) حضور الفكر التربوي الافلاطوني ، د. هبة عادل العزاوي : ٢٧

- (١٠) الفلسفة الغربية المعاصرة : ٢ / ١٤٩٥
- (١١) العنف في العراق ، دراسة سوسولوجية تحليلية نقدية في أسباب العنف، د. فريد جاسم حمود القيسي : ٢٨
- (١٢) المصدر نفسه : ٢٩
- (١٣) ليل علي بابا الحزين ، عبد الخالق الركابي : ٢٣١
- (١٤) المصدر نفسه : ٢٢٥
- (١٥) المصدر نفسه : ٢٢٧
- (١٦) ينظر : مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، المنطلقات المرجعيات. المنهجيات، حفناوي بعلي : ٦٧-٦٩
- (١٧) ليل علي بابا الحزين : ٣٤
- (١٨) المصدر نفسه : ٩٤
- (١٩) المصدر نفسه : ٢٣١
- (٢٠) المصدر نفسه : ٢٤٧
- (٢١) المصدر نفسه : ٢٢١
- (٢٢) المصدر نفسه : ٢٦٨
- (٢٣) المصدر نفسه : ٢٢١
- (٢٤) العنف في العراق : ٢٢٥
- (٢٥) ليل علي بابا الحزين : ٢٣٢
- (٢٦) المصدر نفسه : ١٦
- (٢٧) ينظر : العنف في العراق : ٤١
- (٢٨) إشكالية الهوية في الرواية العربية : ٢٥
- (٢٩) ليل علي بابا الحزين : ٢٣١
- (٣٠) المصدر نفسه : ٧٣
- (٣١) دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ، د. علي الوردني : ٥٨
- (٣٢) ليل علي بابا الحزين : ٧٥
- (٣٣) المصدر نفسه : ٧٧
- (٣٤) المصدر نفسه : ١٠٦
- (٣٥) المصدر نفسه : ١١٧
- (٣٦) العنف في العراق : ٢٢٧ - ٢٢٨
- (٣٧) ليل علي بابا الحزين : ٢٣١
- (٣٨) المصدر نفسه : ٢٣١
- (٣٩) المصدر نفسه : ١٤٩
- (٤٠) المصدر نفسه : ١٢١

(٤١) المصدر نفسه : ١٢٤

(٤٢) المصدر نفسه : ١٢٤

(٤٣) المصدر نفسه : ١٨

(٤٤) المصدر نفسه : ١٤

(٤٥) المصدر نفسه : ٢١-٢٢

(٤٦) المصدر نفسه : ٣٩

(٤٧) المصدر نفسه : ١٩٥

(٤٨) المصدر نفسه : ٢١٩

(٤٩) المصدر نفسه : ٤٦

(٥٠) المصدر نفسه : ٢٢٠-٢٢١

(٥١) المصدر نفسه : ٢٤٨

(٥٢) المصدر نفسه : ٢٥٠

(٥٣) المصدر نفسه : ٢٥٥

(٥٤) المصدر نفسه : ٢٥٦

(٥٥) المصدر نفسه : ٢٩٠

(٥٦) الفلسفة الغربية المعاصرة : ٢ / ٩٨٨

(٥٧) السلطة في الرواية العراقية ، أحمد رشيد وهاب : ٣٧

(٥٨) إشرافات ... أوراق ثقافية ، د. قيس العزاوي : ٤٣

(٥٩) العرب والعالم بين صدام الثقافات وحوار الثقافات ، عبد الله عبد الدائم ، المستقبل العربي ، العدد ٢٠٣ ، ١٩٩٦ م .

(٦٠) ينظر : الإنسان وتطور الدراسات الإنسانية : ٤٥

(٦١) ليل علي بابا الحزين : ٦٧

(٦٢) المصدر نفسه : ٦٩

(٦٣) الفوضى الخلاقة ، بهاء الدين الخاقاني : ٢٠٢

(٦٤) ليل علي بابا الحزين : ١٠١

(٦٥) ينظر : الفلسفة الغربية : ٨٦٧ وما بعدها .

(٦٦) ليل علي بابا الحزين : ١٠٢

- (٦٧) المصدر نفسه : ١١٦
- (٦٨) الفلسفة السياسية التقليدية : ١١٠
- (٦٩) ليل علي بابا الحزين : ١٠٠
- (٧٠) المصدر نفسه : ١١٦
- (٧١) ينظر : المصدر نفسه : ١٨٥
- (٧٢) المصدر نفسه : ١٨٧
- (٧٣) المصدر نفسه : ١٤٩
- (٧٤) المصدر نفسه : ١٨٠
- (٧٥) المصدر نفسه : ٢٠١
- (٧٦) المصدر نفسه : ٢٤١
- (٧٧) ينظر : الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة ، مصطفى سويف : ١٨٨
- (٧٨) المصدر نفسه : ١٨٩
- (٧٩) سيكولوجية الجماهير ، غوستاف لوبون : ٣٦
- (٨٠) المصدر نفسه : ٥٧
- (٨١) خوارق اللاشعور : ٣٦
- (٨٢) نقد الفكر الجاهز ، محمد بهضوض : ٤٥ - ٤٦
- (٨٣) ليل علي بابا الحزين : ٣٦
- (٨٤) المصدر نفسه : ٩٦
- (٨٥) المصدر نفسه : ١٣٧-١٣٨
- (٨٦) المصدر نفسه : ٢٠٥
- (٨٧) المصدر نفسه : ٢١٠
- (٨٨) المصدر نفسه : ٢١١
- (٨٩) الوعي الجمالي ، هिला شهيد : ١٨٤
- (٩٠) ليل علي بابا الحزين : ٩٩
- (٩١) ينظر : العنف في العراق : ٢٢٥
- (٩٢) دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ، د. علي الوردي : ٩٧

(٩٣) ليل علي بابا الحزين : ٩٩

(٩٤) المصدر نفسه : ٢٧٨

(٩٥) المصدر نفسه : ١٠٢

(٩٦) المصدر نفسه : ٢٨٠

(٩٧) المصدر نفسه : ١٢٠

(٩٨) المصدر نفسه : ٢٦٧

(٩٩) المصدر نفسه : ٢٧٩

(١٠٠) المصدر نفسه : ٢٨٧

(١٠١) المصدر نفسه : ٢٨٧

(١٠٢) المصدر نفسه : ٢٨٩

المصادر :

- الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة ، مصطفى سوييف ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٥١ م .

- إشراقات ... أوراق ثقافية ، د. قيس العزاوي ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط١ ، ٢٠٠٥ م .

- إشكالية الهوية في الرواية العربية ، ٢٠٠١-٢٠١٣ م (أطروحة دكتوراه) ، محمد جري جاسم ، كلية الآداب - الجامعة المنصيرية ، ٢٠١٥ م .

- الإنسان وتطور الدراسات الإنسانية ، د. محسن علي الدلفي

- الجمهورية ، إفلاطون ، ترجمة حنا خباز ، القاهرة . ط٣ ، د ت .

- حضور الفكر التربوي الافلاطوني في فلسفة برتراند رسل ، د. هبة عادل العزاوي ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط١ ، ٢٠١٣ م .

- خوارق اللاشعور ، د. علي الوردي ، دار الرواق ، د-ت .

- دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ، د. علي الوردي ، مكتبة الفكر الحر – لبنان ، ط١ ، ٢٠١٨ م .

- السلطة في الرواية العراقية ، أحمد رشيد وهاب (اطروحة دكتوراه) جامعة بابل ، كلية التربية ٢٠١٠ م .

- سيكولوجية الجماهير ، غوستاف لوبون ، ترجمة وتقديم هاشم صالح ، الساقى ، بيروت – لبنان ، ط٧ ، ٢٠١٦ م .

- العرب والعالم بين صدام الثقافات وحوار الثقافات ، عبد الله عبد الدائم ، المستقبل العربي ، العدد ٢٠٣ ، ١٩٩٦ م .

- العنف في العراق دراسة سوسولوجية تحليلية نقدية في أسباب العنف ، د. فريد جاسم حمود القيسي ، المركز العلمي العراقي – بغداد ، ودار ومكتبة البصائر – لبنان ، ط١ ، ٢٠١٢ م .

- الفلسفة السياسية التقليدية ، عبد الستار قاسم ، بغداد ، ط١ ، ١٩٧٩ م .

- الفلسفة الغربية المعاصرة (صناعة العقل الغربي من مركزية الحداثة إلى التشفير المزدوج) ، مجموعة من الأكاديميين العرب، إشراف د. علي عبود المحمداوي ، منشورات الضفاف – الرياض ، و منشورات الاختلاف – الجزائر ، ط١ ، ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م .
- الفوضى الخلاقة استراتيجية السياسة الخارجية الأمريكية لمائة سنة قادمة ، بهاء الدين الخاقاني، مكتبة الخاقاني ، بغداد ط١ ، ٢٠١٣ م .
- ليل علي بابا الحزين (رواية) ، عبد الخالق الركابي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ٢٠١٣م .
- مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، المنطلقات. المرجعيات. المنهجيات. حفاوي بعلي ، الدار العربية للعلوم- ناشرون- منشورات الاختلاف، الجزائر- بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٧م.
- النقد الأدبي الأمريكي من الثلاثينيات إلى الثمانينيات، فنسنت بي ليتش ، ترجمة محمد يحيى، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م، ص١٠٤
- نقد الفكر الجاهز أسئلة الثورة والإصلاح في الوطن العربي ، محمد بهضوض ، الدار العربية للعلوم (ناشرون) ، لبنان ، ط١ ، ٢٠١٢ م .
- الوعي الجمالي بين فلسفتي العلم والبرجماتية ، د. الدكتورة هिला شهيد ، لبنان – بيروت ، ط١ ، ٢٠١٧م .